

أثر المرأة في الخيال الشعري عند العرب

د. حمد النيل محمد الحسن إبراهيم

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة

الخرطوم¹

عاطفة الرجل العربي تجاه المرأة:

كانت عاطفة الرجل العربي تجاه المرأة قبل الإسلام تتقلب بين طرفي نقيض، فقد أحبها خليةً وعشيقةً وزوجاً له حباً لا يضارعه حب آخر، كما أبغضها بنناً مولودة له بغضاً لا مثل له، مخافة أن تسي فتقع في أيدي الأعداء فيلحقه بسببها العار، ولذا رأى في وأدائها خلاصاً له، وراحة لنفسه من هم يلازمه منذ لحظة ميلادها، وقد صور القرآن الكريم هذين النقيضين، فقال الله سبحانه وتعالى مبيناً عن حب الرجل للمرأة ذلك الحب الفطري الذي فطر عليه خلقه: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)². فقد جعلها سبحانه وتعالى زوجاً للرجل يسكن إليها وتسكن إليه، وربط بينهما برباط المحبة والرحمة كما يقول جل من قائل: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)⁽²⁾ وإغراءً لعباده كي يلتزموا وأوامره، ويجتنبوا نواهيه، وعدهم بجزائه الأوفى، بإدخالهم جنة عرضها السماوات والأرض، بها كل المغريات المحببة إليهم، والتي تجذبهم إليها وتجيبهم فيها، ولعلمه سبحانه وتعالى أن لا

¹ منتدب حالياً إلى كلية المعلمين، الأحساء - المملكة العربية السعودية.

شيء أحب إلى الرجل من المرأة، جعلها في أمي صورها وأحبها إلى الرجل - كما ورد في وصف الحور العين في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف - مما يجازى به عباده المخلصين في جنته التي وصفها لهم.

من ناحية ثانية فقد صور سبحانه وتعالى مدى البغض الذي يكنه الرجل العربي في جاهليته للبنات المولودة له إذ يسود وجهه، ويتملكه الأسف، ويجار في أمرها بين اثنين إما أن يمسكها على هون أو أن يدها، فقال جل من قائل: (وإذا بشر أحدكم بالأنتى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشرّ به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب إلا ساء ما يحكمون).⁽³⁾ كما أخبر سبحانه وتعالى عن وأدهم لها منفراً منه ومغلظاً له فقال: (وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت)⁽⁴⁾ ومعالجة لكراهيتهم لها، وتحبيبا لهم فيها، بشرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالثواب العظيم، لكل من يعول ثلاث فتيات كما ورد في الحديث النبوي الشريف: (عن عوف بن مالك، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (من كن له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابا من النار يوم القيامة).⁽⁵⁾ وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمر واحدة، فأعطيتهما، فقسمتهما بين ابنتيهما، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فقال: من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار).⁽⁶⁾ وكما أكرم الإسلام المرأة وليدة أكرمها أيضاً عندما تكون زوجاً فقد قال صلى الله عليه وسلم: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي).⁽⁷⁾ ورفع من شأنها عندما تكون أما بأن جعلها أحق الناس بحسن صحابة الابن أكثر من أحقية الأب بها، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من

الغزل قد يفوق من ارتبطت أسماؤهم بأي غرض آخر من أغراض الشعر الأخرى في أي عصر من عصور الأدب العربي، وقد أورد الشاعر مروان بن أبي حفصة مجموعة ممن اشتهروا بشعر الغزل في أبياته التالية:

بُعَيُونِهِنَّ وَلَا يَدِينِ قَتِيلَا ⁽¹⁴⁾	إِنَّ الْعَوَانِي طَالَمَا قَتَلْتَنَا
ضُمِّنَ أَحْوَرَ فِي الْكَنَاسِ كَحِيَلَا	مَنْ كُلُّ آنَسَةٍ كَأَنَّ حَجَالَهَا
كُلُّ أُصِيبَ وَمَا أَطَاقَ ذُهُولَا	أَرْدَيْنَ عُرْوَةَ وَالْمَرْقَشَ قَبْلَهُ
وَلَقَدْ تَبَلَّنَ كَثِيرًا وَجَمِيلَا	وَلَقَدْ تَرَكْنَا أَبَا ذُوَيْبٍ هَائِمًا
فِيهِنَّ أَصْبَحَ سَائِرًا مَحْمُولَا	وَتَرَكْنَا لَابِنَ أَبِي رَيْبَعَةَ مَنْطِقًا
مِمَّنْ تَرَكْنَا فِرَاقَهُ مَحْبُولَا	إِلَّا أَكُنْ مِنْ قَتْلُنْ فَإِنْتَسِي

هذا وقد اشتط بعض شعراء الغزل في إبداء وجددهم بمحبتهم وتعلقهم بهم، حتى انتهوا إلى تقديس المحبوبة وتأليهها، متخطين بذلك حدود العقيدة الإسلامية، فنسبوا إلى محبتهم كثيراً من الصفات الإلهية كإحياء الموتى، بل أوجوا لهم ما أوجبه الإله لنفسه حقاً على عباده، كالركوع والسجود وما يماثلهما، كما عبر عن ذلك كثير عزة صراحة في قوله:

فِي حُبِّ عَزَّةٍ مَا وَجَدْتُ مَزِيدًا ⁽¹⁵⁾	اللَّهُ يُعَلِّمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةَ
يَكُونُ مِنْ حَذْرِ الْعَذَابِ قُعُودًا	رُهْبَانُ مَدِينِ وَالَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ
خَرُّوا لِعَزَّةٍ رُكْعًا وَسُجُودًا	لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا
مَسًّا وَيَخْلُدُ أَنْ يَرَاكَ خُلُودًا	وَالْمَيْتُ يُنْتَشِرُ أَنْ تَمَسَّ عِظَامَهُ

وقريب منه قول مجنون ليلي يذكر تعلقه بها:

بِوَجْهِهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّيَ وَرَائِيَا ⁽¹⁶⁾	أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمَّتْ نَحْوَهَا
وَعُظْمُ الْجَوَى أَعْيَا الطَّيِّبِ الْمَدَاوِيَا	وَمَا بِي إِشْرَاكَ وَلَكِنْ حُبُّهَا

كما صورها كثير عزة أيضاً في صورة مقدسة أخرى، جاعلاً من دارها مشعراً مقدساً
تغفر عنده ذنوب كل من صلى فيه:

خليلي هذا رُبُّ عَزَّةَ فَأَعْقِلَا
فَلَوْصِيكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ (17)
وَمُسَا تُرَاباً كَانَ قَدْ مَسَّ جِلْدَهَا
وَبَيْتًا وَظِلًّا حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتْ
وَلَا تَيَاسَا أَنْ يَمْحُوَ اللَّهُ عَنْكُمَا
ذُنُوبًا إِذَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتْ

المرأة من مصادر الخيال الشعري عند العرب:

مما لاشك فيه أن حباً للمرأة وتعلقاً واهتماماً وانشغالاً بها يصل إلى هذا الحد، لا بد أن يترك آثاره الواضحة على فكر من تعلق بها وخياله، وذلك لأن الخيال من نتاج الفكر، وأن الفكر يتأثر بما يحيط بالإنسان ويشغله، وهذا ما يظهر جلياً في إنتاجه الأدبي نثراً كان أم شعراً. فقد لاحظ علماء اللغة الارتباط الوثيق بين الصور الخيالية في الأدب ومجتمع الأديب كما يقول الدكتور حسين الصديق: (فالأسلوب التعبيري المستخدم بين العمال على سبيل المثال يختلف في مفرداته وتراكيبه عن أسلوب الفلاحين والتجار..... إن اختلاف الأسلوب باختلاف فئات المجتمع يعني ارتباط الشكل الأدبي بالبنى الاجتماعية والاقتصادية لتلك الفئات). (18) فبالإضافة إلى الحيز الواسع الذي تحتله المرأة في الشعر العربي، والذي يتمثل في شعر الغزل الذي سبقته الإشارة إليه، فقد وجد الشعراء العرب في معاشرتهم للمرأة، وتجاربهم معها، ومعرفتهم بأحوالها، مورداً حصياً من موارد الخيال واستنباط الصورة الفنية، مستلهمين منه كثيراً من الصور الخيالية التي أفادوا منها في التعبير عن معانيهم الشعرية التي يهتمون بإيصالها ونقلها للآخرين، فكثرت في شعرهم تلك الصور الخيالية التي جاءت وليدة لذلك الفكر المرتبط بالمرأة والمتشبهت بها، في مختلف أغراض الشعر العربي عبر عصوره المتتالية، الأمر الذي أهلها لأن تكون مصدراً مهماً من مصادر الخيال الشعري عندهم.

صورة المرأة في الخيال الشعري عند العرب:

كانت صورة المرأة في هياتها وأحوالها المختلفة حاضرة في خيال العربي كلما هم بتشبيه شيء، أو توضيح معنى شعري، أو تقريب صورة من خيال المتلقي، في أي غرض من أغراض الشعر العربي، الأمر الذي يقف شاهداً على أن صورة المرأة كانت ملازمة لخيال الشاعر في أحواله المختلفة، حال حزنه أو فرحه، رضائه أو غضبه، سكونه أو ثورته، تفاؤله أو تشاؤمه، حبه أو كرهه.

من الصور المعهودة للعربي والحبية إليه صورة الفتيات العذارى اللاتي طامنا شغلن عقله وملأن قلبه حباً إليهن، فأخذ يتمثل صورتهن في كل منظر حسن يراه، بل صرن عنده مثلاً أعلى في الحسن، يشبه به أي حسن يروقه، وما أكثر ما يصادفه من مناظر خلابة في الصحراء، كصورة الشياه البرية ترعى في حميلة، ذلك المنظر الذي عرض للشاعر علقمة الفحل فأوحى إليه شاعريته بأن يشبهه بما يضارعه في وقعه من نفسه، فما وجد غير صورة الفتيات العذارى يمشين في ملاء مهدب فقال:

رَأَيْتُنَا شِيَاهًا يَرْتَعِينَ حَمِيلَةً كَمَشَى الْعَذَارَى فِي الْمَلَاءِ الْمُهْدَبِ (19)

كما تمثل ذات الصورة (صورة العذارى) أمام خيال الشاعر امرئ القيس، عندما رأى منظرًا شبيهاً بهذا المنظر الذي رآه علقمة، وهو منظر سرب من النعاج بدا لهم فجأة، فشبّه بالعداري يطفن بصنم يقال له (دوار) وقد ارتدين الملاء المزبل كما يقول في معلقته:

فَعَسَى لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَاءٍ مُنْدَبِلٍ (20)

وترد صورة النساء اللاتي يطفن بصنم دوار أيضاً في تشبيه آخر لمنظر آخر، يختلف عما رآه علقمة أو امرؤ القيس، فهو من وحي الحرب، فقد شبه الشاعر عمرو بن كلثوم

الطير التي اجتمعت على أحد قتلاه تطعم من لحمه وهو مجندل، بعكوف النساء على صنم (دوار)، كما يقول:

تركتُ الطيرَ عاكِفةً عليه كَمَا عَكَفَ النَّسَاءُ عَلَى الدَّوَارِ (21)

وكذلك يشبه عنتره عكوف الطير على أحد قتلاه، بصورة معهودة من صور المرأة في مجتمهم، إذ تجتمع النساء لرف العروس إلى زوجها، فقال:

تركتُ الطيرَ عاكِفةً عليه كَمَا تَرُدِّي إِلَى العُرسِ البَوَانِي (22)

يلاحظ في التشبيهين السابقين لعلقة وامرء القيس تقارب صورتي المشبه، وكذلك صورتي المشبه به، فقد بنى الشاعران تشبيههما على تشبيه حيوان الصحراء بالعذاري، كما يبدو التقارب أيضاً في صورة المشبه به في التشبيهين السابقين لامرء القيس وعمر بن كلثوم، إذ إن كليهما يشبه بالنساء يظفن حول صنم دوار، مع اختلاف كبير في صورة المشبهين عند كل منهما، فالمشبه عند امرء القيس من الصور الجميلة، أما عند ابن كلثوم فمن الصور البشعة، وهو كذلك عند عنتره، مع ملاحظة اتفاق صدري البيتين عند ابن كلثوم وعنتره في ألفاظهما وبالتالي في صورتي المشبه، ويجمع بين أربعتهما أن صورة المشبه به من الصور الجميلة المستوحاة من صورة المرأة في مجتمهم، أما صورة المشبه فمع حسنها وجمالها في التشبيهين الأولين، وبشاعتها في الآخرين، فيجمع بين أربعتهما توحد إحساس الشاعر بها إذ إنها مع بشاعتها في البيتين الآخرين فإنها تحدث في نفس شاعرهما إحساساً يقصر عن مشاركته فيه السامع أو القاريء، وذلك لأن المجندل الموصوف من أعداء الشاعر الذين يسر نرؤيتهم على تلك الصورة البشعة كما يتخيلها السامع أو القاريء، ولعل هذا نفسه ما أوحى لأبي الطيب المتنبي أن يشبه صورة القتلى وقد تناثرت جثثهم على الجبل بصورة العروس وقد نثرت عليها الدراهم، مع ما بينهما من بون شاسع:

نَثَرْتُهُمْ فَوْقَ الأَحْيَادِ كُلِّهِ كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العُرُوسِ الدَّرَاهِمُ (23)

وتوحي صورة العروس وعليها الزينة أيضاً بتشبيه آخر، في غرض آخر من أغراض الشعر، فقد شبه أبو العلاء المعري ليلة مظلمة لاحت نجومها بعروس من الزنج عليها قلائد من جمان، ووجه الشبه صورة شيء أسود تلوح فوقه أشياء مضئئة، وذلك في قوله:

لَيْلَتِي هَذِي عَرُوسٌ مِّنَ الزَّنْجِ حَجَّ عَلَيْهَا قَلَائِدٌ مِّنْ جُمَانٍ (24)

ويبدو أن صورة العروس من صور المرأة التي ربما كانت تستهوي أخيلة الشعراء العرب، فكثرت التشبيه بها، كما في التشبيهات السابقة لعنترة، وأبي الطيب، والمعري، ومن الصور التي تستهوي العربي أيضاً، صورة مشية الفتاة تختال أمام سيدها مدلة بحسنها وجمالها، وجمال ثيابها، فقد كان وقعها طيباً في نفس الشاعر طرفة بن العبد، ولذا فقد شبه بمشيتها هذي تبحتر ناقته في سيرها، إذ قال في معلقته:

وَذَاكَتْ كَمَا ذَاكَتْ وَلَيْسَ دَةً مَجْلِسٍ تُرِي رَيْبَهَا أَدْيَالَ سَحْلٍ مُّمَدَّدٍ (25)

من الصور المعهودة عند العرب والراسخة في أذهانهم والتي تعجبهم أيضاً صورة الفتيات الكواعب وقد ضربت عليهن الستور، فقد كانت هذه الصورة ماثلة في أحياتهم، فعولوا في وصفهم لبعض مشاهد الطبيعة التي يشاهدونها كثيراً في الصحراء، وهي صورة حيوان الصحراء عندما يشند عليه الحر، فيلوذ بالأشجار ويلزم ظلها لا يرحه طيلة النهار، لا سيما إذا كان ذلك الحيوان المشبه مما عرف عندهم بالحسن، كالظباء مثلاً، كما في قول الشاعر الأعشى يشبه الظباء في كناسها بالكواعب قصرت عندها حيامها:

وَيَوْمٍ مِّنَ الشُّعْرَى كَأَنَّ ظِبْيَاءَهُ كَوَاعِبٌ مَّقْصُورٌ عَلَيْهَا سُبُورُهَا (26)

كما لا يخفى ما في البيت من قصد الشاعر إلى تشبيه الظباء بالفتيات في الحسن أيضاً، إذ إن من المعهود عند العرب تشبيه الحساء بالظبي، هذا بالإضافة إلى وجه الشبه الماثل في هيئة المشبه والمشبه به في احتمائهما بمكانيهما.

مثلما ارتبطت صورة المرأة في خيال العربي ببعض الصور والمشاهد الجميلة كما في التشبيهات السابقة، فقد ارتبطت بعض صورها في خياله بصور المعاناة والشقاء، كصورة المرأة الحبلى، وذلك ربما لتذكره معاناتها من حملها، فقد ارتبطت في خياله ببعض صور المعاناة التي رآها في مجتمعه، كصورة الحرب وما تخلفه من أهوال ومصائب ومتاعب في المجتمع، فقد شبهها الأعشى بصورة امرأة حبلى تلد جنيناً متماً أي مكتمل النمو، ويريد مجنبها ما تخلفه من الويلات العظام، فقال مفضعاً من شأنها:

وكانت كحُبلى غِداة الصِّبا حِ كانت ولادتُها عن مُمِّم⁽²⁷⁾

وتأتي صورة الحبلى أيضاً في تشبيه آخر للشاعر الأعشى، إذ يقول مهدداً أعداءه: لن أصالحكم حتى تعودوا عن غيكم وتصرخوا كصرخة حبلى حين تعينها القابله:

أصالحكم حتى تؤوبوا بمثلها كصرخة حُبلى يسرُّها قَبولُها⁽²⁸⁾

طباع المرأة في الخيال الشعري عند العرب:

لقد ميز الله سبحانه وتعالى المرأة وخصها ببعض الطباع والصفات، إعداداً لها لتحمل أعباء الأمومة، ومن تلك الصفات صفة العطف والشفقة على أبنائها، تحزن وتجزع لفقدهم أعظم ما يكون الحزن والجزع، فكانت صورة الأم الواجدة لفقد ابنها أو أقاربها من أكثر الصور التي استوحى منها الشعراء صوراً خيالية استعانوا بها في تعبيرهم عن بعض معانيهم، وبخاصة عندما يعرضون إلى وصف أحزانهم وجرعهم لفراق محبوباتهم، فقد أكثروا من تشبيه حالهم وما يعترضهم من حزن لفراق محبوباتهم بحال من فقدت ابناً أو أبناء لها، كما يقول الشاعر عمرو بن كلثوم واصفاً حاله لفراق محبوبته فيزعم أنه أشد حزناً لفراقها من حزن امرأة شمطاء فقدت تسعة أبناء لها ولم يبق لها منهم سوى قبرهم:

فما وجدت كوجدي أم سقبِ أضلُّته فرجعت الحسِينَا⁽²⁹⁾

ولا شَمَطَاءُ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاها هَلَا مِنْ تِسْعَةِ إِلا جَنِينًا
وقد جعلها شمطاء ربما أراد أنها لا أمل لها في الإنجاب بعد ذلك، الأمر الذي يجعل وقع
المصيبة عليها أعظم، إضافة إلى أن الشمطاء ربما تكون بطبعها أكثر حنيناً من الشابة.
وكذلك يزعم أبو ذؤيب الهذلي أن وجده لفراق محبوبته يفوق وجد امرأة فقدت
وحيدها، وقد أورد تفاصيل خبرها في عدة مشاهد أشبه بمشاهد القصص، فقد قال
مبيناً عن اهتمامها وتعلقها به، وحرصها عليه:

وما إن وَجَدَ مُعْوَلَةً رَفُوبًا بِوَاحِدِهَا إِذَا يَسْعَرُ وَتَضِيفُ⁽³⁰⁾
تُنْفَضُ مَهْدَهُ وَتَذُبُّ عَنْهُ وَمَا تُغْنِي التَّمَائِمُ وَالْعُكُوفُ
تَقُولُ لَهُ كَفَيْتُكَ كُلَّ شَيْءٍ أَهْمُكَ مَا تَخَطَّطَنِي الحُتُوفُ

ثم سرد الوقائع المتلاحقة التي أفضت إلى مقتله، فقد خرج مسافراً في رفقة، فسئحت
لهم الطير، مخبرة بسوء المصير الذي مثل لهم في هجوم الأعداء عليهم:

فلم يرَ غَيْرَ عَادِيَةٍ لِرَآمَاءُ كَمَا يَتَهَدَّمُ الحَوْضُ اللَّقِيفُ⁽³¹⁾
فَرَاغَ وَزَوْدُوهُ ذَاتَ فَرَاغٍ هَلَا تَفْدُ كَمَا قَدَّ الحَشِيفُ

من مظاهر صفة عطف المرأة وشفقتها على أقاربها، أنها تكثر النواح على الموتى
منهم، ولذا كان من دعائهم على الشخص قولهم: (تكلتك أمك)، وكذلك قولهم: (أمك هابل)،
أي الباكية الحزينه، وذلك لنعرتهم بحالة الأم وبكائها على ولدها عند موته، ومما جاء
في أشعارهم من ذلك قول الشاعر ليبيد بن ربيعة العامري يدعو على أحدهم بـ (أمك
هابل):

فَقُولَا لَهُ إِنْ كَانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ أَلَا يَعِظُكَ الدهرُ أُمَّكَ هَابِلُ⁽³²⁾
وكذلك قول الشاعر الحارث بن وعلة الجرمي يدعو على أحدهم بـ (أمك عابر):
يقولُ لي النَّهْدِيُّ: إِنَّكَ مُرْدِفِي وَكَيْفَ رَدَا فُلُّ أُمَّكَ عَابِرُ⁽³³⁾

ولا تكاد صورة المرأة النائحة على قريب لها تفارق أخيلة الشعراء العرب، لكثرة ما شبهوا بها في أشعارهم، فمما جاء في التشبيه بصورتها تشبيه كعب بن زهير لحركة ذراعي ناقته في سيرها ونشاطها وسرعتها عندما يشتد الحر، فقد شبهها بحركة ذراعي امرأة في منتصف العمر، طويلة، تحرك ذراعيها إذ تنوح على ابنها البكر، يقول كعب مفصلاً ذلك التشبيه:

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ⁽³⁴⁾
 شَدُّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَظِطٌ نَصَفَ قَامَتْ فَجَاوَيْهَا تُكْدُ مَنَاقِيلُ
 نَوَاحٍ رُحْوَةٌ الضُّبُعِينَ لَيْسَ هَا لَمَّا نَعَى بِكُرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
 تَسْفِرِي اللَّبَانَ بِكَفَيْهَا وَمِذْرَعُهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَائِيلُ

كما يشبه أبو ذؤيب الهذلي النوق وقد عكفن على حوار لهن بصورة النائحات المجتمعات ينحن على رجل كريم:

فَهِنَّ عَكُوفٌ كَنُوحِ الْكَرِيمِ قَدْ لَاحَ أَكْبَادُهُنَّ الْهَوِيُّ⁽³⁵⁾

مثلما كانت صورة المرأة النائحة حاضرة في أخيلة الشعراء العرب، كذلك لم يكف صوت نواحيها يغيب عن أخيلتهم، فكثير التشبيه بصوت نواحيها في أشعارهم، ولعله من التشبيهات المعهودة عندهم تشبيههم لصوت القوس عند انطلاق السهم منها بصوت امرأة نائحة، كما في قول زهير بن أبي سلمى، يشبه صوت القوس بصوت امرأة عجوز نوح على رجال كرام:

مُنْسَاءٌ مُحْدَلَةٌ كَأَنَّ عِتَادَهَا نَوَاحٍ نَعَتِ الْكِرَامِ مَشِيبُ⁽³⁶⁾

وقريب منه تشبيه الشماخ لصوت القوس بنواحي امرأة تكلى أوجعها الدهر بفقد أقرابها:
 إِذَا أَبْضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَسَرَّنُمُ تُكَلِّي أَوْجَعَتَهَا الْجَنَائِرُ⁽³⁷⁾
 كما يشبه أبو ذؤيب أيضاً أصوات الأفواس حال إعمالها في الأعداء بأصوات نساء يخلطن البكاء برنة حزينة:

كَأَنَّ ارْتِجَازَ الْجُسُغِيَّاتِ وَسَطَهُمْ نَوَاحٍ يَجْمَعُنَ الْبُكَ بِالْأَزَامِلِ (38)

ويأتي التشبيه بالنوايح في غرض آخر من أغراض الشعر العربي، فقد شبه الشاعر لبيد بن ربيعة العامري البرق وما يصاحبه من رعد بالنوايح في أيديهن حرقاً يحركنها يندبن بها حظهن، ولعله أراد بتحريك الخرق تشبيه وميض البرق، إذ يقول ذاكراً البرق:

كَأَنَّ مُصَفِّحَاتٍ فِي دُرَاهُ وَأَنْوَاحًا عَلَيْهِنَّ الْمَالِي (39)

ومن صور النوايح على الموتى المعهودة في المجتمع العربي، وقد نهي عنها الإسلام، لطم الخدود، فقد كانت النساء العربيات يلطمن خدودهن بأيديهن إذا مات لهن قريب، فتسود خدودهن من جراء ذلك اللطم، فقد أوجت صورة الخدود الملتظومة للشاعر أبي تمام بصورة خيالية، في وصفه لبقايا الديار، فقد شبه الأثافي بالخدود الملتظومة في سوادها، فقال:

أَثَافٍ كَالْخُدُودِ لُطْمِنَ حُرْنَسًا وَنُؤْيٍ مِثْلَمَا انْفَصَمَ السَّوَارُ (40)

ويستمد أبو العلاء المعري من صورة الخدود الملتظومة، تعليلاً أديباً رائعاً، إذ ينكر أن تكون تلك العلامات السود على وجه البدر قديمة، ثم يزعم أنها من جراء لطم البدر وجهه لموت ذلك الشخص المرثي:

وَمَا كَلَّسَفَةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرَ اللَّطْمِ (41)

من مظاهر عطف المرأة على أبنائها، شفقها على ابنها عند فطامه، إذ لا يزال متعلناً بها، فيشق عينيها أن تراه يبكي ويعاني من حرمانها له ما بإمكانها أن تجود به، فيمتلئ قلبها عطفاً وحنواً عليه، وقد أدرك الشعراء مدى ذلك العطف والحنو، فاستلهم منه الشاعر المنازلي تشبيهاً لطيفاً، عندما أراد أن يصف الراحة التي أحسوا بها عندما نزلوا وادياً وقت اشتداد الحر، فتخيل أن الوادي قد عطف عليهم بظله ومائه، فشبه عطفه عليهم بعطف المرضعات على الفطيم:

وَقَسَانًا لِفُحَّةِ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاءَ مُضَاعَفِ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ (42)

نزلْنَا دَرَّحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُسْنُ الْمَرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
كذلك إذا أراد الشاعر العربي أن يفتخر بكرمه، يجد في طباع المرأة ما يحفز
خياله في التعبير عن معانيه، ففي عطفها ورأفتها بأبنائها ما يجعلهم يميلون إليها،
ويجتمعون حولها، هذه الصورة أوحى للشاعر الأعشى أن يشبه بها اجتماع الضيوف
والجوعى من القوم حول قدره عندما يشتد البرد في موسم الشتاء، كما يقول مفتخرًا:
إِذَا احْمَرَّتْ أَفَاقُ السَّمَاءِ وَأَعْصَفَتْ رِيَّاحُ الشِّتَاءِ وَاسْتَهَلَّتْ شُهُورُهَا (43)
تَرَى أَنَّ قِدْرِي لَا تَزَالُ كَانُهَا لِذِي الْفَرُوزَةِ الْمَقْرُورِ أُمَّ يَسْزُورُهَا
مُبْرَزَةٌ لَا يُجْعَلُ السِّتْرُ دُونَهَا إِذَا أَحْمَدَ النَّيْرَانُ لَاحَ بَشِيرُهَا
كما لا يخفى ما في قوله: (ميرزة لا يجعل الستر دونها) من تشبيه آخر للقدر بالمرأة
(الأمه)، لأن من عادة العرب ضرب الستور على نساءهم الحرائر، حتى لا يراهن
الآخرون، أما الإماء فيكن ميرزات. ولعله في قوله هذا قد نظر إلى قول الشنفرى في
وصفه لأحد أصحابه الصعاليك وقد عهد إليه أمر إطعامهم، فقال مكنياً عن ذلك
الصعلوك بأمر العيال، ومشبهاً له في تدبير طعامهم بتدبير تلك المرأة التي تخاف على
عيالها نفاذ ما عندها من الطعام إذا أسرفت:

وَأُمَّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحَتَّ وَأَقَلَّتْ (44)
تخاف علينا العيسل إن هي أكثرت ونحن جيع أي آل تآلت
وما إن بها زين بما في وعائها ولكنها من خيفة الجوع أبقت
مصعلكة لا يقصر الستر دونها ولا تترجحي للبيت إن لم تسيبت
ها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً إذا أتست أولى العدي أقشعرت
وتأتي العدي بارزاً نصف ساقها تجول كعير العانة المتلفست
من طباع المرأة التي أقرها الله سبحانه وتعالى حبها الزينة، وضعف حجتها عند
الخصام، فقد قال جل من قائل: (أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) (45).

أورد الزمخشري في تفسيره: أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبین..... ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان يحجج به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصاھن عن فطرة الرجال....⁽⁴⁶⁾ ولعل هذا ما ورد مضمونه في الحديث النبوي الشريف في صفة النساء: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)⁽⁴⁷⁾ . وقد ورد في خطبة للإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - يذم فيها قوماً تقاعسوا عن الجهاد: (يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربان الحجال).⁽⁴⁸⁾ فقد أورد المبرد في تعليقه على هذه الخطبة: ينسبهم إلى ضعف النساء وهو السائر في كلام العرب.⁽⁴⁹⁾ ولذا عمد الشعراء العرب في هجائهم إلى تشبيه الرجال المذمومين بالنساء في ضعفهن وجبنهن، كما في قول زهير بن أبي سلمى يهجو آل حصن، زاعماً أن الأمر قد التبس عليه فلم يعد قادراً على معرفة كنههم، أرجال هم أم نساء!؟

وما أذري وسوف إخال أذري أقوم آل حصن أم نساء⁽⁵⁰⁾

ومما ينسب لعنتره ذمه للفتيان الذين يرضون بدميم العيش، فيشبههم بالبنات في ملازمتهم لمنازهم وعدم خروجهم لساحات الحرب، إذ يقول:

إذا رضي الفتى بدميم عيشٍ وكان وراء سحف كالبناات⁽⁵¹⁾
فقل للننايات إذا نسعتهُ ألا فاقصُرْنَ نذبُ التادبَاتِ

ومما عول عليه الشعراء من طباع النساء وصفاھن في استنباط صورهم الخيالية، تنده خوفهن من ملاقاتة الأهوال والمصائب؛ فقد عبر الأعشى عن شدة الهول في يوم من الأيام بأن كنى عنه بأنه يبيل النساء الدم إذ يقول مادحاً قيس بن معد يكرب:

ويومٍ يُبيلُ النساءَ الدما جعلتَ ردائك فيه خيماراً⁽⁵²⁾

ولضعف المرأة، وقلة حيلتها، فإنها كثيراً ما تلجأ إلى سلاح الغدر والمكر والكيد، كما قال سبحانه وتعالى: (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)⁽⁵³⁾ . ولم تغب صورة مكرها

وكيدها عن خيال الشعراء، فهاهو أبو ذؤيب الهذلي يضرب المثل لنفسه في تظاهرها بتخليها عن حب محبوبته التي غدرت به، مع تماديه في حبها، بقصة امرأة تتظاهر بالتدين واجتناب المنكر اليسير، برفضها طلب جارها أن ترجل له شعره، كما تظهر تقواها بتمسكها بأيسر الشرائع مثل غسلها إنائها سبع مرات من سور الكلب؛ في حين أنها تقترف أعظم المنكرات كالقتل في الخفاء، فقد وجد القوم قتيلاً لها أخفته في منزلها، يقول أبو ذؤيب:

فَأِنَّكَ مِنْهَا وَالتَّعَذُّرُ بَعْدَمَا لَجَجْتَ وَشَطَطْتَ مِنْ فُطَيْمَةَ دَارُهَا (54)
 كَنَعْتَ الَّتِي ظَلَّتْ تُسَبِّحُ سُورَهَا وَقَالَتْ حَرَامٌ أَنْ يُرَجَّلَ جَارُهَا
 تَبَرَّأَ مِنْ دَمِ الْقَتِيلِ وَبَزَّه وَقَدْ عَلِقَتْ دَمَ الْقَتِيلِ إِزَارُهَا

محاسن المرأة في الخيال الشعري عند العرب:

لقد قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تستهوي المرأة الرجال بمحاسنها التي حصنها بها، ولعل هذا سر تعلقهم بها، إذ يرون جمالها فوق كل جمال، وأن متعة النظر إليها لا تعدلها متعة أخرى، ولذا فقد خامرت صورة محاسنها عقولهم، ومازجت أحيائهم، فأصبحت مصدراً من مصادر الخيال عند الشعراء منهم، فكثرت في أشعارهم تلك الصور الخيالية التي استوحوها من صور محاسنها المختلفة، مشبهين بها ومستعيرين منها، ليعبروا بها عن معانيهم في شتى أغراض الشعر. هذا وقد كانت صورة محاسن المرأة ماثلة أمامهم إذا صرفوا عنها النظر إلى سواها مما يعجبهم من المناظر الأخرى، فهاهو امرؤ القيس يصف فرسه فيشبه عرفها بصفائف النساء تحركها الريح في يوم ذي ريح وبرد:

لَهَا عُذْرٌ كَفَرُونَ النَّسَا إِرْكَبُ فِي يَوْمِ رِيحٍ وَصِيرُ (55)

كما يصف فرسه التي يسميها (العوجاء) في قصيدة أخرى، فيشبه جيدها المهتز بجيد عروس تمتاز لتظهر لين قوامها وجمال محاسنها:

وَأَصْبَحَتِ الْعَسْوَجَاءُ يَهْتَزُّ جَيْدُهَا كَجَيْدِ عُرُوسٍ أَصْبَحَتْ مُتَبَدِّلَةً (56)

وكذلك يصف قيس بن الخطيم ناقته فيصفها بأنها قد ضمرت، حتى أصبح وضيئها واسعاً جائلاً على بطنها، وليقرب هذه الصورة شبهه في جولانه بوشاح عروس جال على خصرها كما يقول:

وَقَدْ ضَمُرْتُ حَتَّى كَأَنَّ وَضِيئَهَا وَشَاخُ عُرُوسٍ جَالَ مِنْهَا عَلَى خِصْرِ (57)

ولعل في تشبيهي الشاعرين - امرئ القيس وقيس بن الخطيم - للفرس والناقة بأشياء مستمدة من صورة محاسن العروس دليلاً على حبهما وإعجابهما بدابتيهما حتى شبهاهما بمحاسن المرأة في أجمل صورها وهي صورة العروس، ولعل هذا نفسه ما قصد إليه الشاعران من وراء تشبيه دابتيهما بالعروس.

لم يكن التشبيه بمحاسن المرأة في الشعر العربي قصراً على تشبيه الأشياء الحبيبة للشاعر فحسب، وإن كان هو الغالب على التشبيهات، إلا أنهم أحياناً يشبهون بها صوراً ربما تكون غير محببة إلى نفوسهم، ويكون قصدهم من وراء التشبيه مجرد الصورة من غير أية خلفية نفسية، كتشبيه ذي الرمة لفلاة مظلمة مخوفة قطعها، مشبهاً الرمال فيها بأوراك العذارى:

ورملي كأوراك العذارى قطعته إذا جلتسه المظلمات الخنادس (58)

يبدو أن ذا الرمة ربما لم يرد من وراء هذا التشبيه سوى وجه الشبه المتمثل في الاستواء والرخاوة، حتى يثبت لتلك الفلاة خطورتها إذ يريد باستوائها أنها ليس فيها معلماً يستدل به على طرفها، وأنها ليس فيها ما يستظل به من أشجار أو غيرها، وبرخاوتها أنها تتوخ فيها أقدام الدابة فيصعب سيرها. وذلك لما جرت عليه عادة الشعراء من

الافتخار بقطع المفاوز المخوفة، وإلا كان تشبيهه دليلاً على تعلقه بالصحراء وقد عُرف عنه ذلك في غير هذا الموضوع.

وقد يتعدى الشاعر بخياله التشبيه بالصورة المجردة لمحاسن المرأة إلى التشبيه بما لتلك المحاسن من شهوة عند الرجال، فيعقد مقارنة بين شهوة الرجال لها وشهوتهم للأشياء الأخرى، مثلما يبدو في وصف ابن خفاجة لنهر، زاعماً أن وروده أشهى من لمى الحسناء:

لله نهرٌ سأل في بطحاءٍ أشهى وروداً من لمى الحسناء⁽⁵⁹⁾

ومما تخطئ فيه الشعراء التشبيه بالصورة المجردة لمحاسن المرأة إلى التشبيه بما لتلك المحاسن من شهوة عند الرجال، قول أبي تمام في وصفه لحصن عمورية وقد خربته جيوش المعتصم وحرقتة وقد رأى في خرابه صورة جميلة، أشهى إلى ناظره من حدود الحسنات وقد احمرت من الخجل:

ولا الخُدودُ وقد أذمين من خجلٍ أشهى إلى ناظري من حدّها التّرب⁽⁶⁰⁾

ومن محاسن المرأة ما يدرك بحاسة الشم كطيب رائحتها، التي أوحى لبعض الشعراء بعض الصور الخيالية في وصفهم لطيب الروائح، مثلما في وصف عنترة لريح الخزامى وزعمه أنها تذكره بنسيم العذارى ورائحة محبوبته التي يكنى عنها بقوله (ذات الأيادي):
وريح الخُزامى يُذكّرُ أنفي نَسِيمَ عذارى ودات الأيادي⁽⁶¹⁾

زينة المرأة وزيتها في الخيال الشعري عند العرب:

مثلما استهوت محاسن المرأة الشعراء فاستمدوا منها صورهم الخيالية، فقد استهوتهم أيضاً زيتها، التي تعدّ مكماً لمحاسنها فاستمدوا منها تشبيهاً واستعاراتهم وصورهم الخيالية ليعيروا بها عن معانيهم في شتى الأغراض الشعرية. فمن صور زيتها الأكثر حضوراً في أخيلتهم صورة الوشم الذي تزين به المرأة معصمها، فقد

شبهوا به عدة أشياء منها بقايا رسوم ديار المحبوبة، فقد شبهوها بالوشم أو ببقاياها وذلك لأن منظر تلك الرسوم يتمثل في بقايا الرماد على المواضع التي كانت موافد للنيران، وغالباً ما تكون متفرقة ومحفورة على الأرض ولذا فهي أشبه في منظرها بالوشم الذي كانت تزين به المحبوبة معصمها، مثلما يبدو في قول الشاعر طرفة بن العبد إذ يصف أطلال محبوبته (خولة) مفتتحاً بما معلقته مشبهاً أطلالها ببقايا الوشم:

خَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ تَهْمَدِ تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ (62)
وكذلك يشبه زهير بن أبي سلمى أطلال محبوبته (أم أوفى) ببقايا الوشم إذ يقول:
ديارٌ لها بالرُّقْمَتَيْنِ كَانَتْهَا مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (63)
ومثله قوله أيضاً في تشبيه الديار بالوشم:

هَاجَ الْفَوَادَ مِصَارِفُ الرَّسْمِ قَفَرٍ بِذِي الْمِضْبَاتِ كَالْوَشْمِ (64)
كما يشبه ليبد رسم الديار بالوشم أيضاً في قوله من معلقته:
أَوْ رَجُعُ وَاشِمَةٍ أَسِيفٌ نَوُورُهَا كِفَفًا تَعْرُضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا (65)
ويشبهه المخبل السعدي ما أبقته الرياح والأمطار من دار محبوبته بالوشم أيضاً:
فَكَأَنَّ مَا أَبْقَى الْبَوَارِحُ وَالْأَمْطُ سَارٌ مِنْ عَرَصَاتِهَا الْوَشْمُ (66)
وترد الصورة أيضاً في شعر عمر بن أبي ربيعة إذ يقول مشبهاً الظلل بالوشم:
أَوْقَفْتُ مِنْ طَلَلٍ عَلَى رَسْمِ بَنَوَى الْعَقِيقِ يَلُوْحُ كَالْوَشْمِ (67)
وكذلك قول جرير:

أَرْجَعْتَ مِنْ عِرْفَانٍ رُبْعٍ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ وَشْمٍ فِي مُتُونِ الْأَشْجَاعِ (68)
وتكون صورة الوشم مصدراً لخيال الشعراء في تعبيرهم عن عدة معانٍ أخرى، كتعبيرهم عن معنى الخلود والبقاء، مثلما في تشبيهه حسان بن ثابت قصائده في هجاء قوم بالوشم الذي يبقى ولا تبليه صروف الدهر وتقلباته وذلك في بقائها وخلودها:
ولتعرّفنَّ قلائدي بِرِقَابِكُمْ كَالْوَشْمِ لَا تَبْسُلِي مَعَ الْخَدَّائِ (69)

كما تبدو صورة الوشم أمام أحياتهم أيضاً عندما يصفون حيوان الصحراء، وبخاصة الثور الوحشي، فيشبهون ما يبدو لهم على قوائمه البيض من علامات سود بالوشم، كما في قول النابغة الذبياني:

سَرَّائُهُ مَا خَلَا لِبَائِهِ لَهَقُّ وفي القوائمِ مِثْلُ الْوَشْمِ بِالْقَارِ (70)
ويقتفي الأخطل درب النابغة الذبياني في وصفه للثور الوحشي لفظاً ومعنى، فيأتي بصورة مماثلة لصورة النابغة السابقة إذ يقول مشبهاً ما على قوائم الثور من علامات الوشم:

أما السَّراةُ فَمِنْ دِيَاحَةٍ لَهَقُّ و بالقوائمِ مِثْلُ الْوَشْمِ بِالْقَارِ (71)
ويظهر التماثل بين قوليهما في اللفظ الذي يوشك أن يكون موحداً في عجزى البيتين، هذا بالإضافة لبعض المقرات الأخرى، مثل: سراه، ولهق.

مما استوحاه الشعراء العرب من معرفتهم بأدوات زينة المرأة صوراً خيالية أخرى، استعانوا بها في التعبير عن معان ذات صلة بالمرأة نفسها، فقد أفادوا من صورة العقد وما قد يعتري سلكه من انقراط يؤدي إلى تساقط حبيباته تبعاً، في التعبير عن معاني حزنهم لفراق محبوباتهم، فشبهوا دموعهم لفراقهن بحبيبات العقد المتساقطة، كما في قول امرئ القيس:

فَأَسْئَلُ دَمْعِي كَفَضِ الْجُمَانِ أو الدَّرُّ رِقْرَاقُهُ الْمُتَحَدِرُ (72)
وكذلك قول زهير بن أبي سلمى يصف دموعه لرحيل محبوبته، فيشبهها بحبيبات العقد الذي انقطع سلكه:

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَدْ سَالَ السَّلِيلُ بِهِمْ وَعَجْرَةٌ مَا هُمْ لِسِوَأَنَّهُمْ أُمُّ (73)
عَرَبٌ عَلَى بَكْرَةٍ أُمُّ لَوْلَوْ قَلِقْتُ فِي السَّلَكِ خَانَ بِهِ رِبَاتِهِ النَّظْمُ
ومثله قول عنتره:

فَمِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ فِي أَيْكَةٍ دَرَقَتْ دَمُوعَكَ فَوْقَ ظَهْرِ الْمَحْمَلِ (74)

كالدِّرِّ أَوْ فَضْضِ الْجَمَانِ تَقَطَّعَتْ
ومثله أيضاً قول المخيل السعدي:

وَإِذَا أَلَمَ خِيَالُهَا طَرْفَتَ عَيْنِي فَمَاءُ شُؤْنِهَا سَجِمٌ (75)
كَاللُّوْلُوِّ الْمَسْجُورِ أُغْفِلَ فِي سَلِكِ النَّظَامِ فَخَاتَهُ النَّظْمُ
وكذلك قول الأعشى في ذات الغرض:

فَفَاصَتْ دُمُوعِي كَفَيْضِ الْعُرُوِّ بَ إِمَا وَكَيْفَاً وَإِمَا انْحِدَارَا (76)
كَمَا أَسْلَمَ السُّلُوكُ مِنْ نَظْمِهِ لَأَلَىءَ مُنْحَدِرَاتٍ صِغَارَا
ومثله قول الخنساء ترثي أخاها صخرأ تشبه دموعها بالدر المنحدر:

يَا عَيْنُ جُودِي بِالْذُمُورِ عِ الْمُسْتَهْلَاتِ السَّوَاغِمِ (77)
فِيضاً كَمَا انْخَرَطَ الْجُمَا نُ وَجَالَ فِي سَلِكِ التَّنَاظِمِ
كما يشبه كعب بن زهير دموعه لفراق محبوبته باللؤلؤ المنحدر:

مَا أُنْسَى لَا أُنْسَىهَا وَالدَّمْعُ مَنْسَرِبٌ كَأَنَّهُ لَوْلُؤٌ فِي الْخَدِّ مَحْدُورٌ (78)

وكذلك إذا عمد الشعراء إلى وصف حسن المحبوبة وجمالها، رجعوا إليها مستمدين منها ما يصفونها به، فأخذوا يشبهونها بما تترين به من حبيبات العقود في صفاتها وإشراقها، كما في قول النابغة الذبياني يشبه محبوبته بالدرة الصدفية النادرة التي ما إن يرها العواص حتى يهل ويسجد تعظيماً لها، وإعجاباً بما:

أَوْ دَرَّةٌ صَدْفِيَّةٌ غَوَاصُهَا نَهَجٌ مَتَى يَرَاهَا يَهْلُ وَيَسْجُدُ (79)

كذلك يشبه عبيد الله بن قيس الرقيات المرأة في حسنها وصفاتها وإشراقها بالدرة البكر التي لم تنقب، لأن ذلك أتم لحسنها وصفاتها:

حَبْدَا الْحُجِّ وَالثَّرِيَا وَمِنَ الْبَالِ خَيْفٌ مِنْ أَجْلِهَا وَمُنْقَى الرَّحَالِ (80)
دَرَّةٌ مِنْ عَقَائِلِ الْبَحْرِ بِكَرٍّ لَمْ تَنْلُهَا مَثَابِ السَّبِّ اللَّالِ

كما استوحى الشعراء من صورة الجمان تشبيهات أخرى، استعانوا بها في التعبير عن معانيهم، ومن ذلك وصفهم حيوان الصحراء وتشبيهه بالجمان في إشراقه وحسنه، كما في قول علقمة الفحل يشبه شيهاً برية طاردها بفرسه:

فِينَا تَمَارِينَا وَعَقْدُ عِدَارِهِ خَرَجْنَ عَلَيْنَا كَالْجَمَانِ الْمُثَقَّبِ (81)

وهنا يرى الأعلام الشتمري أن الشاعر أراد يجعله الجمان مثقياً، نظمه ليصف تلك الشياه بالانتظام في سيرها ولولا ذلك لكان وصفه الجمان دون تثقيب أتم وأحسن (82). مثلما ورد في تشبيه عبيد الله بن قيس السابق.

وكذلك يشبه ليبد البقرة الوحشية بجمانة البحري:

وَتَضِيءُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلِّ نِظَامُهَا (83)

لعله من طريف التشبيه تشبيه الشاعر المنازي لخصى وادٍ نزلوه بحبيبات العقد في بريقها، وليقوي وجه الشبه بين هذين الطرفين أردف الزعم بأن العذراء الخالية (ذات العقد) إذا رأت خصي ذلك الوادي لتملكها الروع، خوفاً من أن يكون عقدها قد انفرط؛ لتوهما أن ما تراه من خصي هو حبيبات عقدها، الأمر الذي يجعلها تتحسس عقدها كي تظمن على وجوده وعدم انفراطه:

يُرْوَعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعِدَارِي فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ التَّظْمِينِ (84)

كذلك يصف عنتره معانيه بأنها مرصعة بالجوهر تشبيهاً لها بالقلادة التي تزينها النساء:

وَأَخَذِي كَلَامًا صُغْنُهُ مِنْ عَسْجِدٍ وَمَعَانِيًا رَصَعْتُهَا بِالْجَوْهَرِ (85)

من زينة المرأة العربية السوار الذي تزين به معصمها، وقد كان له أيضاً مكانه في خيال الشعراء، فقد أوحى صورته للشاعر أبي تمام أن يشبه به النوي في وصفه للأطلال، وذلك لأن النوي حفرة تحفر حول الدار لتحبس عنها مياه الأمطار، ويكون في شكل

حلقة مفصومة لأنه لا يحفر عند مدخل الدار، ولذا فهو أشبه بالسوار المنفصم، كما جاء في تشبيه أبي تمام:

أثاف كالحدودِ لُطْمَنَ حُزْنًا وَنُؤِيٍّ مِثْلَمَا انْفَصَمَ السَّوَارُ⁽⁸⁶⁾

ويشبه ابن خفاجة نهرًا في تعطفه بالسوار إذ قال واصفًا ذلك النهر:
مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ بِحُرِّ سَمَاءِ⁽⁸⁷⁾

مثلما احتلت زينة المرأة حيزاً واسعاً في خيال الشعراء العرب، فقد احتلت الأدوات التي تستعين بها المرأة في زينتها والتي عرفها الشعراء العرب قديماً، حيزاً واسعاً من خيالهم، ما أتاح لهم أن يتخيلوا الأشياء الأخرى في صورتها، فإذا أرادوا وصف المرأة بالصفاء والنضارة وجدوا في صورة مرآتها خير ما يشبهونها به، مثلما جاء في تشبيه امرئ القيس لثرائب محبوبته في صقلها وصفائها بـ (السحنجل) وهي كلمة رومية تعني المرأة: (88)

مُهْفَهْفَةٌ بِيضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مِصْفُولَةٌ كَالسَّحْنَجَلِ⁽⁸⁹⁾

وكذلك يشبه علقمة الفحل عين ناقته في صفائها بمرآة امرأة حاذقة ورفيقة بحسنها وجمالها، ما يجعلها أشد حرصاً على صفاء مرآتها:

بَعِينِ كِمِرَّةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا لِحَجَرِهَا مِنَ النَّصِيفِ الْمُتَّقَبِ⁽⁹⁰⁾

ويشبه ذو الرمة خد ناقته في صفائها بمرآة المرأة الغريبة، فهي أحرص من غيرها على صفاء مرآتها، إذ ليس لها من يعينها على زينتها من أهلها:

لَهَا أذنُ حَشْرٍ وَذِفْرَى أَسِيلَةٌ وَخَدِ كِمِرَّةِ الْغَرِيبَةِ أَسْحَجُ⁽⁹¹⁾

من الأدوات التي تستعين بها المرأة في زينتها أيضاً (المداك)، وهو الحجر الذي يسحق عليه طيبها، فقد عرف الشعراء ملامسته، فعولوا عليه في تشبيه الأشياء في الملامسة كما في قول امرئ القيس يصف فرسه، فيشبهه سراته بمداك العروس في شكله ولامسته:

كَأَنَّ سَرَاتَهُ لَدَى الْبَيْتِ قَائِمًا مَدَاكُ عَرُوسٍ أَوْ صَلَايَةُ حَنْظَلٍ⁽⁹²⁾

ويشبه علقمة الفحل صدر صيد اصطادوه فأنضحوه، بالمداك المخضب بالطيب، ولعله أراد بقوله (مخضب) تشبيه ما عليه من ودك:
 فظُلُّ الأَكْفُ يُخْتَلَفُنَ بِمَآئِدٍ إِلَى جُوجُوٍّ مِثْلَ المَدَاكِ المَخْضَبِ (93)
 وكذلك من الأدوات التي تستعين بها المرأة في زينتها (الحق) وهو وعاء يحفظ فيه الطيب، فقد عول عليه الشعراء أيضاً في تشبيهاهم، كما فعل عمرو بن كلثوم عندما شبه به ثدي محبوبته، في شكله من حيث استدارته وبروزه ولونه:
 وثدياً مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخْصاً حَصَاناً مِّنْ أَكْفِ اللَامِسِينَا (94)
 وربما وصفه بأنه رخصاً حتى يثبت له صفة الغضوضه، وينفي عنه صفة الصلابة التي للعاج.

من زينة المرأة أيضاً زيتها، وقد كان هو كذلك من الصور الراسخة في خيال الشعراء أوحى لهم بعدة صور خيالية، استعانوا ببعضها في وصف حسن المرأة نفسها، فمن الصور المعروفة لديهم أن رداء العروس يصب عليه الطيب، ما يكسبه البرودة صيفاً، ومما توصف به النساء من صفات الحسن برودة جسمها في الصيف، ولذا فقد شبه الأعرشى برودة جسم محبوبته برود رداء العروس عندما يرفرق في العبير صيفاً:
 وَتَبْرُدُ بِرْدِ رِداءِ العُـسـرِو سِ رَقْرَقَتْ فِي الصَّيْفِ فِيهِ العِـبِيرَا (95)
 ومن زي المرأة العربية أيضاً الخمار الذي تغطي به رأسها، فقد وجد الشعراء في صورته صوراً خيالية أعانتهم في التعبير عن بعض المعاني، التي من الغريب أن جاء بعضها وصفاً لأحوال الرجال، مثلما جاء في قول الأعرشى عندما أراد أن يعبر عن عزوفه عن مغازلة النساء والتعلق بمن بسبب كبر سنه، فتخيل الشيب في صورة خمار يغطي رأسه كما يقول عن نفسه:
 تَبَدَّلَ بَعْدَ الصَّبَا حِكْمَةً وَقَنَعَهُ الشَّيْبُ مِنْهُ خِمَارًا (96)

وكذلك إذا أراد أن يعبر عن شج رؤوس الأعداء بالسيف، يتخيل السيف(وقد عبر عنه بالرداء) خماراً يعلو به رؤوسهم مثلما جاء في قول الأعشى أيضاً مناجياً ممدوحه:
ويوم يُبيلُ النساءَ الدِّمًا جعلتَ رداءك فيه خماراً⁽⁹⁷⁾

تجسيم المعاني الشعرية وتشخيصها في صورة امرأة:

التجسيم والتشخيص ضربان من ضروب الخيال، ويكون التجسيم بتخيل المعاني المعنوية وإبرازها في صور محسوسة، وقد تكون تلك الصورة المحسوسة لإنسان أو غيره، أما التشخيص فيكون بتخيل الأشياء في صورة إنسان، وغالباً ما يكون باستعارة نوازمه لغيره من الأشياء المراد تشخيصها. ولكانة المرأة في خيال الشاعر العربي كان كثيراً ما يجسم الأشياء ويشخصها في صورة امرأة أو في صورة شيء له صلة بها. ويرد التجسيم والتشخيص في كل أبواب الشعر العربي، ما يدل على أن صورة المرأة كانت ماثلة في خيال الشاعر العربي في كل ظروفه أحواله.

تشخيص الأشياء في صورة امرأة:

كثيراً ما كان الشاعر العربي في العصر الجاهلي يعمد إلى تشخيص دار محبوبته بتخيلها في صورة امرأة، فيحييها، ويناجيها، ويسألها عن محبوبته، ومن أمثلة ذلك قول عنزة مناجياً دار محبوبته عنزة ومحياً لها:

يا دارَ عَيْنةِ الجِوَاءِ تَكَلِّمِي وَعِمي صابحاً دارَ عَيْنةِ واسْتَمِي⁽⁹⁸⁾

وكذلك يشخص النابغة دار نعم بسؤاله لها، وزعمه أنها استعجبت فلم تكلمه، مع أن العجمة صفة ملازمة لها:

وقفتُ فيها سراةَ اليومِ أسألُها عن آلِ نَعْمٍ أمُوناً عُبرَ أسفارِ⁽⁹⁹⁾
فاستعجبتُ دارُ نَعْمِي ما تُكَلِّمُنَا والدارُ لو كَلَّمْتُنَا ذاتُ أخبارِ

وكذلك يشخص لبيد بقايا الديار، إذ وقف يسألها عن أحبابه، ثم استدرك أن سؤالها لا جدوى منه:

فوقفتُ أسألها وكيف سؤألنا صمًّا رَوَاكِدَ ما يَبِينُ كِلامُها (100)

ومما أكثر الشعراء من تشخيصه في صورة امرأة، مظاهر الطبيعة المختلفة، فقد استعاروا لها بعض لوازم المرأة، مثلما فعل الأعشى في تشخيصه للشمس إذ تخيلها في صورة امرأة تلقى قناعها، في قوله مادحاً:

فبئى لو يُنادي الشمسَ أَلقتُ قِنَاعَها أو القمرَ الساري لألقى المَقالداً (101)

وكذلك تخيلها الشاعر بشار بن برد فتاة إذ استعار لها الخدر، في قوله واصفاً خروجهم لملاقاة جيش العدو:

عَدونا لهُ والشمسُ في خَدْرِ أمِّها نُطالِعُنا والطلُّ لم يَجِرِ ذائِبُه (102)

ويكثر في الشعر العربي تشخيص الأشياء في صورة فتاة بوصفها بأنها بكر كما في وصف عبيد الله ابن قيس الدرة بأنها بكر، في قوله مشبيهاً حسناء بالدرة:

درةٌ من عقائلِ البحرِ بَكْرٌ لم تَنلُها مثاقِبُ النَّالِ (103)

يريد بأنها بكر ألها لم تثقب بعد كما صرح به، ولعل هذا أكمل لحسنها، كما يكون بذلك قد أثبت للفتاة التي شبهها ما عذرتها. وكذلك يصف أبو تمام الدرة بأنها بكر:

أو درةٌ بيضاءُ بَكْرٌ أَطبقتُ حَبلاً على ياقوتَةٍ بيضاءَ (104)

ومثل تشخيصهم للأشياء في صورة فتاة بكر، تشخيصهم لها إذ وصفها بأنها عذراء مثلما في قول أبي تمام يصف بلدة:

تعلُّمُ كمِ افترَعَتْ صدورُ رماحِهِ وسيوفِهِ من بلدةِ عذراءَ (105)

ومثله وصف أبي الطيب المتنبي طريقاً بأنها عذراء في قوله يذكر ناقته:

أنساعُها مَعُوطَةٌ وخِفافُها منكوحةٌ وطريقُها عَذراءُ (106)

ولعله من رائع التشخيص تشخيص أبي تمام لعمورية تلك المدينة الرومية المحصنة، فقد تخيلها في صورة فتاة حسانا متمنعة في وجوه طالبها الأشداء، وقد عجزوا عن الوصول إليها جميعهم، فظلت بكرًا منذ أمد بعيد حتى سلط الله عليها الخليفة المعتصم الذي استطاع الوصول إليها.....:

وبرزة الوجهِ قد أعيتَ رياضُها كسرى وصدتْ صُدوداً عن أبي كَرَبِ (107)
بِكرٍ فما افتَرعتها كُفٌ حادِثَةٌ ولا ترقُوتُ إليها همةُ التُّوبِ
من عهدِ إسكندر أو من قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
حتى إذا مخضَ اللهُ السنينَ لها مَخضَ البخيلةِ كانتْ زُبدةَ الحَقَبِ
كما شخصها مرة أخرى في صورة الأم، إذ قال بكر الروم:

أُمُّ لَهْمٍ لَوْ رُجُوا أَنْ تُفْتَدَى جَعَلُوا فِدَاءِهَا كُلَّ أُمَّ مِنْهُمْ وَأَبُ
فمثلما شخص أبو تمام عمورية بوصفه لها بأنها بكر، وأراد بذلك أنها لم تفتح من قبل، فعلى ذلك تكون البلدة العذراء هي التي لم تفتح من قبل، والطريق العذراء التي لم يسلكها أحد من قبل.

أما شعراء الخمريات فقد أكثروا من تشخيص الخمر في صورة فتاة عذراء مصونة، وإكمالاً للصورة التي تخيلوها عليها، تخيلوا معاقرتهم لها وطناً، وفض ختامها فضلاً لختام فتاة بكر، وزعيمهم في هذا المنهج الشاعر أبو نواس، ومن أمثلة تشخيصه للخمر على ذلك المنهج وصفه لها بأنها عذراء ومصونة ومحجبة في الخدر، في قوله يذكر صاحب حانة:

ومرّاً ذا فَرَحٍ يَسْعَى بِمَسْرَجَةٍ فَاسْتَلَّ عَذْرَاءَ لَمْ تَبْرُزْ لِأَزْوَاجِ (108)
مصونةٌ حجُّوها في مخدِّرها عن العيونِ لكِسْرَى صاحبِ التاجِ
ووصفها في موضع آخر بأنها عروس خدر، وأنها تبدو عطلاً ثم محلاة بعقدي در:
عروسٌ خدِرٍ من الياقوتِ نشرُبها تُكِنُّ تحتَ سماها بدرَ أقمارِ (109)

تَبْدُو لَنَا غَطْلًا حَتَّى إِذَا مُرِجَتْ حَلَى لَهَا الْمَرْجُ سَمْطِي دِرِ قَسْطَارِ
وسار البحر يري في ذات الدرب فقال مشخصاً الخمر:

ما للمدامة بعد طولِ وصالِها صَدَّتْ صُدُودٌ مُجَانِبِ غَضْبَانِ (110)
لأذت بجرّ القَيْظِ فامتنعتُ بِهِ وتعوّذتُ بِالْقُرْبِ مِنْ رَمْضَانَ
كما نهج ابن المعتز ذات النهج في خمريته التي مطلعها:

صوتُ إلى التُّدَامِي والعُقَارِ وشربُ بالصَّعَارِ وبالكِبَارِ (111)
وفيها يقول مشخصاً الخمر:

وبيضاءِ الخِمَارِ إِذَا اجْتَلَتْهَا عيونُ الشَّرْبِ صفراءُ الإزَارِ (112)
جَمُوحٌ فِي عِنَانِ المَاءِ تَنْزُو إِذَا مَا راضَهَا نَزَو المِهَارِي
فَضَضَتْ حَتَامَهَا عَنْ رُوحِ رَاحِ لَهَا جسدانِ مِنْ خَزَفٍ وَقَارِ
ومثله أيضاً قول ابن خفاجة واصفاً الخمر بأنها عذراء:

وشريتها عذراءٌ تَحْسِبُ أَنهَا مَعصُورَةٌ مِنْ وَجنتِي عَذْرَاءِ (113)
جمراءٌ صافيةٌ تَطِيبُ بِنَفْسِهَا وَعَنَائِهَا وَخَلَائِقِ التُّدْمَاءِ

تجسيم المعاني في صورة امرأة:

مثلما ابتدع شعراء العرب منذ العصر الجاهلي تشخيص الأشياء في صورة
امرأة، كذلك ابتدعوا تجسيم المعاني في صورة امرأة أيضاً، ويكون تجسيمها في صورة
امرأة تشخيص لها كذلك، مثلما في قول النابغة الذبياني يجسم المصيبة في صورة امرأة

عوان غير بكر، يريد يجعلها عوان تفضيها لأن العوان أكبر من البكر:
وَمَنْ يَتَرَبَّصُ الحَدَثَانَ تَنْزِلُ بِسَاحَتِهِ عَوَانٌ غَيْرُ بَكْرٍ (114)

كما يجسم أبو تمام قصيدته فيتحيلها في صورة فتاة عذراء تزف إلى ممدوحه:
إنيكُ بِهَا عَذْرَاءٌ رُفَّتْ كَأَنَّهَا عروسٌ عَلَيْهَا حَلِيهَا يَتَكَمَّرُ (115)

وعلى ذات الدرب يسير الشريف الرضي فيجسم القصيدة في صورة فتاة عذراء:
وقصيدة عذراء مثل
تألقِ الروضِ النضير⁽¹¹⁶⁾
فرما أراد الشاعران بَعْدَ القصيدة جودتها وحسنها، وأما لم يسبق إلى معانيها شاعر
آخر.

ولعله من رائع التحسيم ما جرى على لسان أبي الطيب المتنبّي في وصفه
للحمى التي ألت به بأرض مصر، فقد جسمها في صورة فتاة تعشقه فلا تزوره إلا ليلاً
لشدة حيايتها حتى لا يراها الناس؛ فتقضي معه الليل كله، فتغسله عند فراقها له (بعرقه)
كأنه قد مارس معها فعلاً محرماً يوجب الغسل، وعندما يحين وقت فراقها مع الصبح،
تفارقه باكية من شدة تعلقها به، فيظل يراقب وقت حضورها إليه ليس شدة شوقه إليها
بل من شدة كرهه لها، فتصدق كعادتها في وعدّها بالحضور إليه، فيسألها متعجباً: كيف
استطاعت الوصول إليه مع ازدحام السبل المؤدية إليه بغيرها من بنات الدهر:
وزائري كأنّ بها حياءً
فليس تزورُ إلا في الظلام⁽¹¹⁷⁾
ثم يقول عنها:

إذا ما فارقتني غسّلتني	كأنّ عاكفان على حرام
كأنّ الصبح يطردّها فتجري	مدامعها بأربعة سحام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبّة المشوق المستهام
ويصدق وعدّها والصدق شرّ	إذا ألقاك في الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنت	فكيف وصلت أنت من الزحام؟

مثلما وجد المتنبّي في استعارة معاني العشق طريقة مثلى للتعبير عن معانيه في
وصف الحمى، كذلك وجد شعراء الحب الإلهي كابن الفارض، وابن عربي، وشعراء
المديح النبوي كالבוصري والصرصري والبرعي في استعارة معاني العشق المعهودة عند
شعراء العرب طريقة مثلى للتعبير عن معاني حبه الإلهي، وعشقهم الصوفي، حتى بدت

معاني شعرهم في ظاهرها تغزلاً بامرأة، لما يرد فيه من ذكر لأسماء النساء، ومناجاة لهن، ووصف لمحاسنهن، مع إبداء شدة الوجد والتعلق بهن، يرد كل ذلك على منهج الشعراء العذريين في الغزل حيناً وعلى منهج الشعراء الحسينيين حيناً آخر، مع بعد شعرائه عن هذين الوادين، ومن أمثلة ما جاء على تلك الطريقة عند ابن الفارض قوله:

أَوْمِضْ بَرْقِ بِالْأَيْبِرِ لِحَا أَوْ فِي رَبِّا نَجِدُ أَرَى مِصْبَاحًا⁽¹¹⁸⁾
 أَمَ تَلِكْ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةُ أَسْفَرَتْ لَيْلًا فَصَيَّرَتْ الْمَسَاءَ صِبَا حَا

ثم يقول في ذات القصيدة:

يَا سَاكِبِي نَجِدْ أَمَا مِنْ رَحْمَةٍ لِأَسِيرِ إلفٍ لَا يُرِيدُ صِلَا حَا
 هَلَّا بَعَثْتُمْ لِلْمَشْتُوقِ تَحِيَّةً فِي طَيِّ صَافِيَةِ الرِّوَا حِ رَوَا حَا
 يَا عَاذِلَ الْمُشْتَا قِ جَهْلًا بِالذِّي يَلْقَى مَلِيًّا لَا بَلَعْتَ نَحَا حَا
 أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ فِي نَصِيحَةٍ مَنْ يَرَى أَنْ لَا يَرَى الإِقْبَالَ وَالْإِفْلَا حَا
 أَقْصِرْ عَدِمْتِكَ وَأَطْرَحْ مَنْ أَتَخَنَّتْ أَحْشَاءَهُ الشُّجْلُ العُيُونُ جِرَا حَا

وكذلك قوله:

مَا أَطِيبَ مَا بَتْنَا مَعًا فِي بُرْدٍ إِذْ لاصِقَ حَدَّهُ اعْتِنَاقًا خَدِّي⁽¹¹⁹⁾
 حَتَّى رَشَحْتَ مِنْ عَرَقٍ وَجَنَّتْهُ لِأَزَالَ نَصِيبي مِنْهُ مَاءُ الوَرْدِ

وعلى هذا النهج سار البوصيري في قصيدته المسماة (بردة المديح النبوي) إذ بدأها متغزلاً بقوله:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَدِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمِ⁽¹²⁰⁾

ثم تلا هذا المقطع بحوالي خمسة عشر بيتاً من الشعر الغزلي، منها قوله:

لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ وَالْعَلَمِ
 فَكَيْفَ تُتَكَرَّرُ حَيًّا بَعْدَمَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
 وَأَثَبْتَ الوَجْدُ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَضَيِّقٍ مِثْلَ النَّهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَنَمِ

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي وَالْحُبُّ يَعْتَصِرُ اللَّذَاتِ بِالْأَلْمِ
يا لائمي في الهوى العُدريِّ معذرةً منِّي إليك فلو أنصفتَ لم تُلم

ويبدو أن هُج شعراء الحب الإلهي والغزل الصوفي في تعبيرهم عن معانيهم الخمرية بمعان ذات صلة بالمرأة يماثل هُج شعراء الخمريات في تعبيرهم عن معانيهم، وربما كان أصحاب الخمريات هم الأسبق في هذا المضمار، بحكم السبق الزمني، إضافة إلى أن الصورة الخيالية عندهم في تصويرهم للخمر في صورة امرأة لم تأت مكتملة وناضجة كاكتمالها ونضجها عند شعراء الحب الإلهي والغزل الصوفي، ما يوحي بأنها كانت في عهدهم في مرحلة النمو. فقد قصر شعراء الخمريات تخيلهم للخمر في صورة امرأة على استعارة بعض الصفات من المرأة ونسبتها للخمر، مع إيراد صفات الخمر الأخرى التي غالباً ما تكون لها الغلبة في وصفهم على الصفات المستعارة من المرأة، أما عند شعراء الحب الإلهي والغزل الصوفي، فقد غابت صورة الموصوف الحقيقي تماماً خلف صورة المرأة التي يفصلونها ثم يبينون عن وجدهم بها، إلى حد يصعب فيه التمييز بين قصائدهم وقصائد الغزل الأخرى (العذري مثلاً)، كما أورد أمين يوسف عودة عن رينولد نيكسون- ما ترجمه أبو العلا عفيفي-: (لا نستطيع التمييز بين قصيدتين إحداهما يتغنى صاحبها بالحب الإنساني والأخرى بالحب الإلهي، فإذا قيل لم ذهب الصوفية إلى هذا الحد من استعمال لغة الحب ورموز المحبين، كان الجواب أنهم لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أقدر على التعبير عن مواجدهم وأحوالهم من الشعر). (121)

ويبدو أن شعراء الخمريات أنفسهم استندوا في تخيلهم للخمر في صورة امرأة على بعض الصور الخيالية لبعض الشعراء السابقين لهم في تخيلهم لبعض الأشياء في صورة امرأة مثلما ورد سابقاً.

صلة الرجل بالمرأة في الخيال الشعري عند العرب:

صلة الرجل بالمرأة متنوعة و قديمة قدم الخلق، فهي إما صلة عشق، أو زواج، أو أبوة، أو بنوة، ولكل منها خصوصيتها، وقد أدرك الشعراء تلك الصلوات المتنوعة وما يلزم كل منها من المسئولية والعاطفة تجاه المرأة، فاستعانوا بذلك في رسم بعض الصور الخيالية التي يعبرون بها عن معانيهم، فمثلاً تخيلوا صلة الزواج، عندما يقدم عليه الرجل، فيتقدم لخطبة فتاة، وما يتبع ذلك من إعجاب بها، لاسيما إذا كانت من ذوات الحسن؛ فإنه لا يستكثر عليها ما ينفقه من مهر مهما كثر، كما صور ذلك أبو فراس الحمداني مستعيناً به في التعبير عن معني من معاني الفخر عندما أراد أن يفتخر بجرص قومه على بلوغ المعالي، وأنهم يبذلون في سبيل بلوغها أعلى ما يملكون، وهو نفوسهم، ضرب مثلاً لذلك ببذل المهر الكثير للحسناء إذ قال:

تَمُونَ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِبْهَا الْمَهْرُ (122)

كما أفاد الشعراء من معرفتهم بصلة الرجل بالمرأة زواجاً، وما تحتمه تلك الصلة عليه من تدبير أمرها، ورعايتها وحمايتها، وغيرته عليها، وتقلب أمره معها في معالجة الأمور بين القسوة واللين والحكمة، وبخاصة إذا كان ممن لديه عدد من الزوجات، فقد أفادوا من مشاهدتهم لمثل هذه المشاهد في مجتمعاتهم فأخذوا يتمثلونها في معانيهم الشعرية لاسيما في وصفهم لحمار الوحش وأتته، فقد تخيلوه معها إذ يقوم بواجبه تجاهها في صورة الزوج ذي الزوجات، كما تخيلوها ضرائر مثلما في قول الأعشى:

نَحَائِصُ شَتَّى عَلَى عَيْنِهِ حَلَائِلُ لَمْ يُؤْذِهِ مَالُهَا (123)
عَنيفٌ وَإِنْ كَانَ ذَا شِرَّةٍ بِجَمْعِ الضَّرَائِرِ شَلَّالُهَا
إِذَا حَالَ مِنْ دُونِهَا غَبِيَّةٌ مِنَ التُّرْبِ فَانْحَالَ سِرْبُهَا
فَلَمْ يَرْضَ بِالْقُرْبِ حَتَّى يَكُونَ وَسَادًا لِلْحَيِّهِ أَكْفَالُهَا

قد يعتري صلة الرجل بزوجه ما يكدر عليه صفو عيشه، فيحسب أن في الطلاق خلاصاً له، فيلجأ إليه مضطراً، ولكن قد تزداد حاله سوءاً بعد فراقها، هذه الصورة أوحى للشاعر البحري في وصفه إيوان كسرى أن يتخيله في كآبته في صورة رجل مرهق بتطليق زوجته، إذ يقول:

بَتَّظَنِي مِنَ الْكَآبَةِ إِذْ يَبِيَّ سَدُّو لِعَيِّي مُصْبِحٌ أَوْ مُمَسِّي (124)

مُزْعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنِ الْفِئِ أَنْسِ عَزُّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيْقِ عِرْسِ

أما صلة الرجل بالمرأة أن يكون ابناً لها، وما تحتمه تلك الصلة من حب وإجلال لها، فقد أفاد منها الشعراء في تعبيرهم عن معاني الإجلال والتقدير، كما في وصف أبي تمام لإجلال الروم لمدينتهم وحصنهم (عمورية) فقد تخيلها في صورة الأم، كما تخيلهم في صورة الأبناء، وأهم لو خيروا في أمر فدائها لفدوها بأمهاتهم وآبائهم الحقيقيين:

أُمُّهُمْ لَوْ رُجُوا أَنْ تُفْتَدَى جَعَلُوا فِدَاءَهَا كُلِّ أُمِّ مِنْهُمْ وَأَبِ (125)

كذلك أفاد الشعراء من تخيلهم لصلة الأبناء بأمهاتهم أيضاً، في تعبيرهم عن معنى الإعزاز للأشياء، فجعلوها فداء كل محبوب وعزيز لديهم، فكثرت في تعبيرهم قولهم: (فداؤك أُمِّي) أو (فداؤك أُمِّي وَأَبِي). كما في قول الشاعر الحارث بن وعله الجرمي

مخاطباً رجليه اللتين نجتاه هرباً من الأعداء، ممدياً هما بأمه وخالته إذ يقول:

فَدَى لَكُمَا رِجْلِي أُمِّي وَخَالَتِي غَدَاةَ الْكَلَابِ إِذْ تُحَزُّ الدَّوَابِرُ (126)

ومثله قول حسان بن ثابت في قصيدة يرثي بها عثمان بن عفان (رضي الله عنه):

وَبِهَا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وُلِدْتُ قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَحْيَانًا (127)

وكذلك قول الأعشى:

هُنَاكَ فِدَى لَهُمْ أُمِّي غَدَاةَ تَوَارَدُوا الْعَلَمَا (128)

وقول الفرزدق:

فِدَى لَكَ أُمِّي عِنْدَ كُلِّ عَظِيمَةٍ إِذَا أَنَا لَمْ اسْطَعِ لَأَمْثَالِهَا حَمَلًا (129)

خاتمة:

مثلما شغلت المرأة حيزاً واسعاً من خيال العربي، كذلك شغلت حيزاً واسعاً في أدبه، فبالإضافة إلى شعر الغزل الذي يمثل غرضاً مهماً وواسعاً من أغراض الشعر العربي، فقد جاءت كثير من الصور الخيالية في كل أغراض الشعر الأخرى زاخرة بتلك الصور الخيالية التي ابتدعها خيال العربي المنشغل بالمرأة والتفكير فيها دوماً، إذ لا يكاد يتكلم إلا بما يشغله، ولذا كثرت في الشعر العربي تلك الصور الخيالية المستوحاة من عالم المرأة ومعرفة العربي به. حتى يبدو خياله في كثير من حالاته رهيناً وحبساً في صورة المرأة التي لا يكاد يخرج من حصونها، يدور داخلها في دائرة مفرغة لا يعرف لها بداية أو نهاية، فإذا أراد أن يصف المرأة شبهها بالدرة التي هي أداة زينتها، وإذا أراد أن يصف الدرّة التي شبه بها المرأة، رجع إليها مرة أخرى ليستمد منها تشبيهاً للدرّة فيشبهها بالفنّانة البكر، وهلم جرا.

الهوامش

1. سورة آل عمران 14
2. سورة الروم 21
3. سورة النحل 59/58
4. سورة التكاوير 9/8
5. سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد القزويني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ - 1210/2
6. فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت 426/10
7. سنن ابن ماجه 636/6
8. فتح الباري 401/10

9. الشعر والشعراء- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى-
1421هـ-2000م
10. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - أبو الحسن ابن رشيق القيرواني - دار الجيل - بيروت -
بدون تاريخ 224
11. المصدر السابق 120
12. انظر العصر الإسلامي د. شوقي ضيف طبعة دار المعارف - مصر - الطبعة السادسة - بدون تاريخ -
مركز الشعر الأموي 139
13. انظر ديوان الشاعر عمر بن أبي ربيعة- - طبعة الأعلمي للمطبوعات- بيروت الطبعة الأولى-
1419هـ- 1998م
14. ديوان مروان بن أبي حفصة- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى-1413هـ- 1993م-
93
* يدين: أي يدفعن الدية . الكناس: مأوى الوحوش وما تلجأ إليه من ظل وغيره. تبلى: أسقم
بجهن.
15. ديوان كثير عزة - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى- 1413هـ- 1993م 76
* مدين: مدينة عربية قديمة.
16. ديوان مجنون ليلى- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى- 1419هـ- 1998م 205
17. ديوان كثير عزة 54
* قلوبصيكما: القلوب الناقاة الفتية.
18. المدخل إلى تاريخ الفكر العربي الإسلامي - د.حسين الصديق - منشورات جامعة حلب 1991م
22 -
19. شرح ديوان علقمة الفحل- الأعلام الشتتري- دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى-
1414هـ- 1994م-61
* الملاء المهذب: الثوب ذو الزوائد.
20. ديوان امرئ القيس- دار الكتب العلمية- بيروت -121
* دوار: صنم يطاف حوله. الملاء المذبل: الثوب ذو الزوائد.
21. ديوان عمرو بن كلثوم- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثانية-416هـ- 1996م- 48
* الدوار: صنم يطاف حوله.
22. ديوان عنتره العنسي - دار القلم - بيروت - بدون تاريخ 73

- * تردى: تجيء. البواني: النساء اللاتي يشاركن في زف العروس ووجه الشبه بين رقصهن وتوثب الطير أثناء مشيه.
23. شرح ديوان المتنبي - شرح عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1407هـ - 104/4 م 1986
* الأحيديب: الجليل.
24. ديوان سقط الزند - أبو العلاء المعري - طبعة شركة الأرقم - بيروت - الطبعة الأولى - 1418هـ - 1998 م - 33
25. ديوان طرفة بن العبد - المكتبة الثقافية - بيروت 29
* ذالت: تبخترت. الوليدة: الجارية. سحل: الثوب من القطن. ممدد: طويل.
26. شرح ديوان الأعشى الكبير - ميمون بن قيس - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية - 1414هـ - 1994 م - 170
* الشعري: كوكب يطلع في شدة الحر. كواعب: مفردتها كاعب، الفناة التي برز لها.
27. المصدر السابق 315
* متم: مكتمل النمو، يولد بعد تمام مدته.
28. المصدر السابق 292
* القبول: القابلة.
29. ديوان عمرو بن كلثوم 70
* السقب: ولد الناقة. الشمطاء: المعجوز. جنين: هنا بمعنى القبر لأنه يجن من بداخله أي يغطيه.
30. ديوان الهدليين - تحقيق أحمد الزين - طبعة دار الكتب العلمية - القاهرة - 1364هـ - 1963 م - 99/1
* معولة: من العويل المرأة التي تنكي على الميت. الرقوب: التي لا يعيش لها ولد. تضيف: تخشى عليه. التمام: مفردتها تميمة، التعويدة التي تعلق على الحيد لدفع البلاء. العكوف: بمعنى الحرص والحذر.
31. المصدر السابق 99/1
* عادية: كتيبة من الجيش تعدو على أرجلها. الزام: بمعنى ملازمين للحرب. اللقيف: الممتلىء. راغ: انحرف. ذات فرغ: طعنة واسعة. الحشيف: الثوب البالي.
32. ديوان ليبد بن ربيعة - شرح الطوسي - دارا لكتاب العربي - بيروت الطبعة الثانية - 1417هـ - 1997 م - 144
* هابل: تكلى.

33. المفضليات - المفضل محمد بن يعلى بن عامر الضبي - تحقيق د. قصي الحسين - طباعة دار الهلال - بيروت - الطبعة الأولى - 1998م 97
- * مردئي : احملي معك على دابة واحدة . الفل : المهزوم .
34. ديوان كعب بن زهير - دار الكتب العلمية - بيروت - 1417هـ - 1997م 64
- * أوب ذراعها : حر كتهما . تلغح : التحف . القور : المكان المرتفع . العساقيل : السراب . عيطل : أراد امرأة طويلة نصف : في منتصف العمر . نكد : مفردها نكداء بمعنى كثيرة المصائب الضبعين : العضدين . تغري اللبان : تشق رداءها حزناً . مدرعها : رداءها . رعابيل : ممزق .
35. ديوان الهذليين 67/1
36. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية - 1416هـ - 1995م - 271 - * يصف صوت قوس ، عتادها : بمعنى صوتها . ومعدلة : بمعنى أعلاها أوسع من أسفلها
37. ديوان الشماخ بن ضرار - دار الكتب العربي - بيروت - الطبعة الأولى . بدون تاريخ 36
38. ديوان الهذليين 84/1
- * الجعثيات : القسي لعلها منسوبة إلى جعثمة وهي حي من هذيل .
39. ديوان لبند بن ربيعة العامري 165 المصفحات الأبل ، اللآلي بمعنى الخرق .
40. ديوان أبي تمام - حبيب بن أوس الطائي - دار صعب - بيروت - 124 -
- * الأثاني هي الحجارة التي يوضع عليها القدر عند الطبخ . النؤي : الحفر حول الخيمة يدفع عنها السيل .
41. ديوان سقط الرند 70
42. معجم الأدياء - أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي - دار المستشرق - بيروت - بدون تاريخ - 276/10
43. شرح ديوان الأعشى 169
- * المقرر : الذي يعاني شدة الرد .
44. المفضليات 64
- * أرتحت : قللت الطعام . العيل : قلة الطعام . أي آل نالت : عجباً لما أي نزع هذا الذي تنتهجه . وفضة : جعة السهام . العدي : الأعداء .
45. سورة الزخرف 18
46. الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل - محمد بن عمر الريحشري - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - 1407هـ - 1987م 243/4
47. فتح الباري 45/1

48. الكامل في اللغة والأدب- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد- مؤسسة المعارف - بيروت- الطبعة الأولى- 1420هـ-1999م 16
49. المصدر السابق 16
50. شرح ديوان زهير 81
51. ديوان عنتره 101
- * السجف: الستارة.
52. شرح ديوان الأعشى 144
- * رداؤك: أراد سيفك. جعلته حماراً: أي علوت به رؤوس القوم ضرباً.
53. سورة يوسف 28
54. ديوان الخليلين 144/1
- * تسبع سورها: تغسل إناؤها سبع مرات من سؤر الكلب. يرحل: يمشط شعره. بزه: سلاحه أو ثيابه.
55. ديوان امرئ القيس 71
- * صر: برد شديد
56. المصدر السابق 152
57. ديوان قيس بن الخطيم- تحقيق ناصر الدين الأسد- دار صادر- بيروت- 1976م 23
- * الوضين: سير يشد به الرجل على ظهر الناقة.
58. ديوان شعر ذي الرمة- غيلان بن عقب دار صادر- بيروت- الطبعة الأولى- 1995م 290
- * جللته: غطته. الحنادس: الليالي الشديدة الظلمة.
59. ديوان ابن خفاجة - شرح د. يوسف شكري فرحات- دار الخيل- بيروت- بدون تاريخ 22
60. ديوان أبي تمام 15
61. ديوان عنتره 115
62. ديوان طرفه 19
- * برقة نهمند: موضع.
63. شرح ديوان زهير 34
- * الرقمتين: موضع. نواشر: النواشر العصب. المعصم: موضع السوار.
64. المصدر السابق 274
65. شرح ديوان لبيد 204
- * أسف: ذر على. نوورها: النور الأعمد الذي يذر على الوشم. كففاً: أي مستديراً.
66. المفصليات 66

67. ديوان عمر بن أبي ربيعة 333
68. ديوان جرير - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ 282
- *الأشاجع: أصول الأصابع.
69. ديوان حسان بن ثابت - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - بدون تاريخ 250
70. ديوان النابغة الذبياني - دار القلم - بدون تاريخ 58
- * سراته : ظهره . لحن : شديد البياض .
71. ديوان الأخطل - شرح مجيد طراد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى - 1416هـ - 1995م
28
72. ديوان امرئ القيس 69
73. شرح ديوان زهير 127
- * الغرب : الدلو .
74. ديوان عنتره 42
75. المفضليات 66
- * الشؤون : بحاري الدمع . سحيم : هاظل . المسجور : المنظوم .
76. شرح ديوان الأعشى 138
- * العروب : مفردتها غرب ، وهو الدلو .
77. ديوان الخنساء - دار التراث العربي - بيروت - 1388هـ - 1968م 82
78. ديوان كعب بن زهير 326
79. ديوان النابغة 78
80. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى - 1416هـ - 1995م
178
- * ملقى الرحال : موضع الإقامة . اللآل : ناظم الوان .
81. شرح ديوان علقمة 62
- * تمارينا: بحاري بعضنا بعضا أي يجادله ويبادلته الرأي .
82. المصدر السابق 62
83. ديوان لبيد 220
84. معجم الأدباء 276/10
- * الحالية : المتزينة بالخلي .
85. ديوان عنتره 140

86. ديوان أبي تمام 124
* معنى نوي حفرة تجعل حول المنزل أو الخيمة تصرف عنها مياه الأمطار
87. ديوان ابن خفاجة 22
* يكتفه : يحيط به. بحر سماء: الحرة بمجموعة كواكب في السماء.
88. شرح المعلقات السبع- أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني- دار الجليل - بيروت - بدون تاريخ
27
89. ديوان امرئ القيس 115
* مهفهفة : ليست بالمرهلة اللحم. مفاضة : ضخمة البطن.
90. شرح ديوان علقمة 56
* الصناع : المرأة الماهرة. النصف : الخمار. المنقب : الذي جعل نقاباً على الوجه.
91. ديوان شعر ذي الرمة 117
* حشر : صغيرة . الذفرى : ما يلي الأذن. أسحج : سهل طويل.
92. ديوان امرئ القيس 120
* سراته : ظهره. المداك : حجر يدق عليه الطيب . الصلاة : حجر يسحق عليه الخنظل.
93. شرح ديوان علقمة 64
* حانئ : مشوي نضيج. الجوجؤ: الصدر. المداك : حجر يدق عليه الطيب
94. ديوان عمرو بن كلثوم 68
95. شرح ديوان الأعشى 160
96. المصدر السابق 139
97. المصدر السابق 144
98. ديوان عنتره 47
* رداءك : بمعنى سيفك. جعلته خمارة: ضربت به الأعداء على رؤوسهم.
99. ديوان النابغة الذبياني 55
* أمون: نافقة صلبة . عبر أسفار : يعبر عليها للأسفار.
100. ديوان لبيد بن ربيعة 204
101. شرح ديوان الأعشى 99
102. ديوان بشار بن برد- شرح حسين حموي- دار الجليل- بيروت- الطبعة الأولى- 1416هـ- 1996م
م 273/1
* الخدر: حجرة الفتاة بجوار والدها.

103. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات 178
104. ديوان أبي تمام 11
105. المصدر السابق 9
106. شرح ديوان المتنبي 145/1
- * أنساعها : مفردها نسع سير يشد به الرحل . مغموطة : ممدودة . منكوحه : بمعنى مجرحة .
107. ديوان أبي تمام 15
- * برزة الوجه : بارزة الوجه . النوب : المصائب .
108. ديوان أبي نواس - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ 136
109. المصدر السابق 261
- * عطلا : غير مزينة تخلي . السمط : العقد . فسطار : ناقد الدراهم .
110. ديوان البحرني - شرح د. محمد التنوحي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى - 1414هـ - 1994م/2 1245
111. ديوان ابن المعتز - عبد الله بن المعتز - شرح ميشيل نعمان - الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت - 1969م - 204
112. المصدر السابق 240
- * احتلتها : نظرت إليها . جموح : يسرع الجرى . تزو : تثب . المهاري : نوع الأبل .
113. ديوان ابن خفاجة 21
114. ديوان النابغة 64
- * عوان : امرأة كبيرة .
115. ديوان أبي تمام 141
116. ديوان الشريف الرضي - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى - 1415هـ - 1995م 397
117. شرح المتنبي 276/4
118. ديوان ابن الفارض - شرح مهدي محمد ناصر الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1410هـ - 1990م 104
- * الأبيرق : موضع . أسفرت : كشفت وجهها . أنحنت : أشنت عليه . النحل : الواسعة .
119. المصدر السابق 115
- * البرد : الثوب .
120. ديوان البوصيري - شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد - شرح الأستاذ أحمد حسن بسج - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1421هـ - 2001م 165

- * البيان والعلم: موضعان. عدول: عادلة . النهار : نبت طيب الرائحة. العنم : شجر له نبت أحمر .
121. تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية (ابن عربي) - أمين يوسف عودة- منشورات رابطة الكتاب الأردنيين- عمان- 1995م-181
122. ديوان أبي فراس الحمداني - دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ- 67
123. شرح ديوان الأعشى 271
- * غائص مفردا نحوص وهي الحائل غير الحامل. حلائل: مفردها حليلة أي زوجة. الشرة: الحدة. الضرائر: مفردها ضرة، النساء تحت رجل واحد. شلال: شل: طرد. الغيبة: الدفعة من كل شيء.
124. ديوان البحري 124/1
125. ديوان أبي تمام 15
126. المفضليات 97
- * الكلاب: يوم من أيام العرب.
127. ديوان حسان بن ثابت 244
128. شرح ديوان الأعشى 322
129. ديوان الفرزدق- شرح الأستاذ علي حريس- مؤسسة الأعلمي للطبوعات- بيروت- الطبعة الأولى- 1416هـ-1996م-410